

الصناعة المعجمية في (رسالة الضّب) للشيخ محمد البشير الإبراهيمي
الجزائري (ت 1385هـ/ 1965م)
يوسف بن نافلة (جامعة حسية بن بوعلي الشلف)

الملخص: لقد أنجبت الجزائر الحبيبة ثلّة من العلماء الأجلاء ، والجهابذة الأفاضل في مختلف العلوم ، والحقول المعرفية المتنوعة ، ولعلّ من أبرز هؤلاء نجد العلامة وحيد عصره ، وفريد زمانه ، وأمير البيان ، وسليمان الحجة ، والبرهان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي استطاع من خلال مدوّنته الموسومة ب(رسالة الضّب) أن يساهم في تأصيل رصين للدرس المعجمي العربي ، على منوال الرسائل المعجمية المشهورة في التراث العربي الأصيل ، وقد شدّ انتباهي في الرسالة تمكّنه من ناصية اللغة ، و معرفته بدقائق هذا الحيوان الصغير ، وكأنه ابن بيئة الصحراء ، وقد عاش فيها ردحا من الزمن ، وبرسالته المعجمية الصغيرة يمكن أن نعدّ في اعتقادي الشيخ البشير الإبراهيمي أحد أعلام الدّرس المعجمي الدلالي .

Summary : The beloved Algeria has given birth to a group of distinguished scholars, the most beautiful and magnificent scholars in various sciences, and the various fields of knowledge. Perhaps the most prominent of these are the uniquely distinguished scholar, Farid Zaman, Amir al-Bayan, Sultan al-Hajjah, and the proof, Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi who was able through his blog tagged with (Al-Dab's message) that he contributes to a solid rooting of the Arabic lexical lesson, along the lines of the famous lexical messages in the authentic Arab heritage, and he attracted my attention in the message enabling him to corner the language, and his knowledge of the minutes of this small animal, as if he was the son of the desert environment, and he lived in it for a time. , And b I asked

the small Lexical can promise that I believe Sheikh Bashir Ibrahim flags a lesson lexical semantic.

المقدمة: لقد اهتم العلماء الجزائريون اهتماما بالغاً بالدّرس المعجمي العربي من خلال تدوين رسائل، ومعاجم تدخل في علم المفردات، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء شدّ انتباهي ما قام به الشيخ البحر الفهامة محمد البشير الإبراهيمي الجزائري (ت 1385هـ/1965م) في مصنّفه الموسوم ب(رسالة الضّب) حيث عمد إلى إحياء التأليف في الرسائل المعجمية على منوال مجالس اللغة لأبي العباس ثعلب (ت 291هـ) حيث نشرت أماليه باسم (مجالس ثعلب) بتحقيق عبد السلام هارون رحمه الله تعالى، وأمالي اليزيدي (ت 310هـ) وقد نشرت في حيدر آباد بالهند، وأمالي الزجاجي (ت 337هـ)، وقد حقّقها الشيخ عبد السلام هارون، وأمالي أبي العالي القالي (ت 365هـ)، وأمالي ابن الشجري (ت 542هـ)، وأمالي ابن الحاجب (ت 646هـ). وهي من أفضل، وأحسن مصنفات الأمالي.

أما الإشكال الذي أرغب في طرحه فيتمثل في الآتي :

- فيم تتجلى المحاولة المعجمية التي قام بها الشيخ الإبراهيمي في رسالته المعجمية (الضّب)؟

- وهل استطاع الشيخ الإبراهيمي أن يلج مجال الصناعة المعجمية، والتأليف في علم المفردات من خلال رسالته هذه؟

- وهل كان الإبراهيمي في رسالته المعجمية هذه مقلداً للمؤلفين اللغويين العرب أم كان مجدداً؟

- وهل يمكن أن ندرج هذا المجهود الذي قام به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في رسالته النفيسة عن حيوان الضّب من ضرب علم الدلالة المعجمي ؟

التعريف بالشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي: هو محمد البشير الإبراهيمي ولد يوم الخميس عند طلوع الشمس في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف (1306هـ)، الموافق للربيع عشر من يونيو سنة 1889م. قبيلته تُعرف بأولاد إبراهيم بن يحيى بن مساهل، وترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجذم الأول للأشراف الأدارسة، وإدريس هذا المعروف بإدريس الأكبر هو الذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد وقعة فخ بين العلويين، والعباسيين وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسينيين في المغربين الأقصى والأوسط، ونسبه هذا مستفيض بين سكان الأطلس أوراس، وسفوحه الجنوبية إلى الصحراء، والشمالية إلى التلؤلؤ.

نشأ في بيت والده كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأ في التعليم، وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمره، وكان الذي يعلمه الكتابة، ويلقنه القرآن الكريم جماعة من أقاربه جماعة من حفاظ القرآن، ويشرف على عليه إشرافا عاليا عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي رحمه الله، وكان حامل لواء الفنون العربية من نحوها، وصرفها، واشتقاقها، ولغتها.

فلما بلغ سبع سنين استلمه عمه من معلمي القرآن، وتولّى تربيته بنفسه فكان لا يفارقه، فما بلغ تسع سنين من عمره حتى كان يحفظ القرآن الكريم مع فهم مفرداته، وغريبه، وكان يحفظ معه ألفية ابن مالك، ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السير، والأثر، ويحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب، ويحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب، والأندلس في المائة السابعة، ويحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن الشهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب، ثم لفته عمه

إلى دواوين فحول المشاركة ورسائل بلغائهم، فحفظ صدرا من شعر المتنبي، وصدرا من شعر الطائيين وحفظ ديوان الحماسة، وكثيرا من رسائل سهل بن هارون، وبديع الزمان، وبارشاد عمّه كان يحفظ كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت، وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكته اللغوية¹.

ولم يزل عمه رحمه الله يتدرج به من كتاب إلى كتاب تلقينا، وحفظا، ومداينة للمتون والكتب التي حفظها حتى بلغ الحادية عشرة، فبدأ له في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها أقرأه كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهم، وبحث، وكان يقرئه مع جماعة الطلاب، ويقرئه وحده، ويقرئه وهو يماشيه في المزارع، ويقرئه على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت، وفي الظلمة، حتى يغلبه النوم، ولم يكن شيئا من ذلك يرهقه لأن الله تعالى وهبني حافظا خارقة للعادة، وقرينة نيرة، وذهنا صيورا للمعاني ولو كانت بعيدة، ولما بلغ أربع عشر سنة مرض عمه مرض الموت فكان لا يعفيه من تلقين، وإفادة وهو على فراش الموت، بحيث ختم الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة.

ولما مات عمه شرع في تدريس العلوم التي درسها عليه، وأجازه بتدريسها، وعمره أربع عشرة سنة لطلبته الذين كانوا زملائه في الدراسة عليه، ودام على تلك الحال إلى أن جاوز العشرين من عمره فتأقت نفسه إلى الهجرة إلى الشرق، فاختار المدينة المنورة لأن والده سبقه إليها سنة 1908م، فرارا من ظلم الاحتلال الفرنسي، فالتحق به متخفيا أوائل سنة 1912م، كما خرج هو متخفيا، ومّر في وجهته هذه

بالقاهرة، فأقام بها ثلاثة أشهر، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعرف أشهر علمائه .

ثم خرج من القاهرة قاصدا المدينة المنورة، وكان وصوله إليها في أواخر سنة 1911م، واجتمع بوالده رحمه الله، وطاف بحلق العلم في الحرم النبوي مختبرا فلم يرق له شيء منها، وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء. وأخذ أيام مجاورته بالمدينة علم التفسير، علم الجرح والتعديل، وأنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النبوية، وأتمم معلوماته في علم المنطق... وبالجملة فقد كانت إقامته بالمدينة المنورة أيام خير وبركة عليه، فكان ينفق أوقاته الزائدة في إلقاء دروس في العلوم التي لا يحتاج فيها إلى مزيد كالتحقيق، والصرف، والعقائد، والأدب، وكان يتردد على المكتبات الجامعة، فلا يراه الرائي إلا في مكتبة من المكتبات المشهورة.¹

كل هذا وهو لم ينقطع عن إلقاء الدروس، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ولم ينقطع عن ذلك النظام المحكم في حياته العلمية، ثم خرج مع والده إلى دمشق في شتاء 1917م، وألقى بعدها دروسا في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي، ثم دعت الحكومة إلى تدريس الآداب بالمدرسة السلطانية (وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك) مشاركا للأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك فاضطلع بما حمل من ذلك، وتلقى عنه التلمذة دروسا في الأدب العربي، وكانت الأقسام التي يُدرّس لها الأدب العربي هي الصفوف النهائية المرشحة للبكالوريا، وقد تخرّج عنه جماعة من الطلبة هم اليوم عماد الأدب العربي في سوريا منهم: الدكتور جميل صليبا، والدكتور أديب الروماني، والدكتور المحاييري، والدكتور عدنان الأتاسي.¹

ثم سنحت له الفرصة فرجع إلى الجزائر موطن آبائه، وأجداده سنة 1920م، واشتغل بالتدريس، والوعظ إلى سنة 1931م، مدّة عشر سنوات، وفي هذه السنة

أسّس هو وجماعة من العلماء المصلحين (جماعة العلماء المسلمين الجزائريين) وانتُخب نائبا لرئيسها الشيخ العلامة المصلح عبد الحميد بن باديس، وبقي في منصبه هذا إلى أن توفي الشيخ ابن باديس في أوائل سنة 1940م، فانتُخب بالإجماع رئيسا للجمعية وهو بمنفاه بآفلو من صحراء وهران، ثم أُطلق سراحه بعد أن قضى بالمنفى ثلاث سنوات فشرع في العمل، والجهاد من جديد، فأسس في سنة سبعين مدرسة عربية حرّة، وبقي مستمرا في جهاده هذا مدرّسا وخطيبا، وكاتبا في جريدة الجمعية، ولسان حالها (البصائر)، ومصلحا بين الناس، ومناهضا للسياسة الاستدمارية الفرنسية، ولما قامت الثورة التحريرية المظفرة كان من الأوائل الذي ساندتها بالبيانات، والخطب، وبتقديم النصّح، والتوجيه لقادتها، والاتصال بزعماء الدول العربية، والإسلامية لطلب التأييد السياسي، والمالي لها. وبعد الاستقلال خطب أول خطبة جمعة في جامع كتشاوة.. ثم اعتزل الحياة العامة في آخر أيامه بسبب المرض وكبر السن، ووُضع تحت الإقامة الجبرية، ثم تُوفي رحمه الله تعالى في الثامن عشر من محرم 1385هـ، الموافق لالتاسه عشر من ماي 1965م، عن عمر قارب السبعة والسبعين عاما.

-مؤلفاته: يقول الشيخ عن نفسه: (لم يتّسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلّى بأني ألفتُ للشّعب رجالا، وعملتُ لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه، ولغته فأصبح مسلما عربيا، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أيبّا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرّب، ورضى الشّعب).¹ ومع ذلك فقد ساهم بالكتابة في موضوعات مفيدة، ومن أجل ماكتب :

- عيون البصائر :وهي مجموعة مقالات كتبها بقلمه في جريدة البصائر .
- كتاب (بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية الجزائرية) .
- كتاب (النقايات والنقايات في لغة العرب)جمع فيه كل ما جاء على وزن (فعالة) .
- كتاب (أسرار الضمائر العربية)
- كتاب (التسمية بالمصدر) .
- كتاب (الصفات التي جاءت على وزن (فَعْل) (بفتح العين)
- كتاب (نظام العربية في موازين كلماتها .)
- كتاب (الاطراد والشذوذ في العربية) .
- رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك)
- كتاب (ما أخلّت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة) .
- رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان .
- رواية (كاهنة الأوراس) بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال .
- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية .
- كتاب (مشروعية الزكاة في الإسلام .)
- كتاب (شُعب الإيمان.)
- ملحمة رجزية تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه ¹ .

الدّرس المعجمي في رسالة الضّب للشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

المتأمل في رسالة الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي الموسومة ب(رسالة الضّب)يجدها بحق رسالة ذات قيمة علمية نفيسة ،وفائدة جلية ،وقد أملاها الشيخ من حفظه أيام كان في السجن بمدينة أفلو من الصّحراء الوهرانية ،وقد احتوت على فوائد ،وأشعار ،ومسائل لغوية ،ولطائف كبيرة لا يستهان بها ،تدلّ على عبقرية صاحبها ،وملكته اللغوية النادرة ،وهي تعدّ من ضرب كتب الأمالي .

وأول مَنْ أُمليَ مجالس في اللّغة هو أبو العباس ثعلب (ت 291هـ) ،ثم أمالي اليزيدي (ت 310هـ) ،وأمالي الزجاجي (ت 337هـ) ،،أمالي أبي علي القالي (ت 356هـ) ،وأمالي ابن الشجري (ت 542هـ) ،وأمالي ابن الحاجب (ت 646هـ) .

والرسالة تمتاز بأنّها تدرج ضمن ما يُعرف عند أصحاب المعاجم ب (كتب الحيوان)، وكتب الحيوان هي في الحقيقة كتب لغوية مفردة لنوع من أنواع الحيوان ككتب الخيل ،و الشاء ،والإبل ،والحشرات وغير ذلك ،وقد كان هذا الضّرب من التّأليف معروفا في العصور الأولى من التدوين وصنّفت فيه العديد من الأسفار وقد تمّ طبع بعض منها .¹

ويذكر سعيد حسن بحيري أنّ العرب الأوائل اهتموا بتأليف رسائل صغيرة تدور كل رسالة منها حول موضوع واحد ،وتعرض لجزيئات كل موضوع ،وصفاته ،وأحواله ،والفروق الخاصة منها ،ويحدد هذه الموضوعات في خلق الإنسان ، والحشرات ،والوحوش ،والحيوان ،وبخاصة الخيل ،والإبل ،والشاء ،والنبات ،والنبات ،والشجر ،وبخاصة النّخل ،والكرم ،والمطر ،والأيام والليالي ،والشهور ،والرحل ،الدّرات وغير ذلك ..

ويذكر في هذا الموضوع أسماء عدد من اللغويين الأوائل الذين حرصوا على جمع اللغة العربية في صورة هذه الرسائل التي أصبحت فيما بعد نواة المعاجم العربية، والإرهاصات الأولى لها، وعليها اعتمد صانعو المعجم في موادهم اللغوية، وتوثيقها، والتثبت من صحتها، ومعرفة الدلالات، والفروق بين المفردات المختلفة، وإمكان تفسيرها، وشرحها شرحا دقيقا، ومفصّلا.

ومن هذه الأسماء عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 215هـ) الذي أسهم بدور أساسي، وجوهري في الحفاظ على العربية الفصحى، ونقل موادها سليمة، وصافية بريئة من الشوائب إلا أنّ كثيرا من مدوّناته قد ضاعت، ولم يبق منها إلاّ رسائل في الإبل، والخيّل، والشاء، والوحوش، والفرق، وخلق الإنسان، والنبات، والشجر، وأبو عبيدة الأنصاري (ت 215هـ) الذي لا يقل دوره عن الأصمعي، وقد بقيت من مؤلفاته رسائل في المطر، والهمز، واللّبأ، وكتاب النّوادر في اللغة، والفرّاء (ت 207هـ)، وقطرب (ت 206هـ)، وأبو عمرو الشيباني (ت 206هـ)، وأبو عبيدة (ت 210هـ)، وابن الأعرابي (ت 231هـ)، وأبو حاتم السجستاني (ت 255هـ)، وغيرهم.¹

وسمّي الدكتور عبد اللّطيف الصوفي هذا النوع من التّأليف برسائل المعاني وعدّها شكلا من أشكال جمع اللغة، حيث صنفت فيها المفردات تصنيفا موضوعيا على معنى واحد من المعاني تناول بعضها أعضاء الإنسان، وبعضها ألفاظا تتعلق بحياته الاجتماعية كالأخبية، والدّارات، والأثواب، والرحل، والسلاح وغيرها، مثل كتاب (خلق الإنسان) للأصمعي، وكتاب (الرحل والمنزل) المنسوب لابن قتيبة، بينما تناول الآخر الطبيعة والحيوانات، والنباتات إذ وضعت فيها رسائل مختصرة مثل كتاب (الإبل)، وكتاب (الخيّل)، وكتاب (النبات والشجر)، وكلها للأصمعي، ومثل

كتاب (المطر) ، وكتاب (اللبأ واللبن) لأبي زيد الأنصاري ، أو كتاب (الخيل) لأبي عبيدة ، وهو كتاب مصدّر بمقدمة طويلة عن محبة العرب ، واهتمامهم بالخيال، وعن أهميته في الجهاد مع شواهد مناسبة من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر العربي ، بعدها يبدأ في الحديث عن أعضاء رأس الفرس ، ثم عن فحول الخيل وأناتها وأولادها ، وعن عيوبها ، وألوانها ومشيتها ¹

و(رسالة الضّب) للإمام الإبراهيمي تعتبر من كتب (الحشرات) ، وجدير بالتنبيه أنّ لفظ (الحشرة) في اللغة لا يُطلق على ما جرى عليه الاصطلاح ، والشّهرة اليوم ، وإنّما الحشرة عند المتقدمين تشمل كلّ ما كان صغيرا من دوابّ الأرض مثل: اليربوع ، والأرنب ، والفنّنفد ، والجّعل ، والحُنفساء ، وغير ذلك ، من ذلك مثلا قول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) : (الحشرة ما كان من صغار دوابّ الأرض مثل اليرابيع ، والقنّافد ، والضّباب ، ونحوها .) (العين : 269/1) ، وقال ابن قتيبة : (والحشرة ما كان من الهوامّ ، وصغار دوابّ الأرض ، مثل الحناظب ، والجّعلان ، والتّمل ، والحيات ، والأساريع ، واليرابيع ، وهو اسم جامع لذلك كلّ .) (الجرائيم، ص135).¹

أمّا من العلماء الذين كتبوا عن حيوان الضّب فنجد الجاحظ في كتابه (الحيوان : 38/6-147) ، وأبو العلاء المعري في (رسالة الصّاهل والشّاحج : ص147 وما بعدها) ، وابن قتيبة في (المعاني الكبير : 642/2) ، والجرائيم (238/2) ، والذّميري في (حياة الحيوان الكبرى : 98/3-102) ، وابن سيده في (المخصّص : 8/2 وما بعدها) ، ومن المعاصرين الأستاذ شاعر هادي شكر في (الحيوان في الأدب العربي : 229/2 وما بعدها) ، والأستاذ أحمد الشّرقاوي إقبال فقد

كتب في ذلك رسالة جامعة وهي مطبوعة بعنوان : (ما جاء عن العرب في الضَّب)¹

والشيخ البشير الإبراهيمي أملى هذه الرسالة بعد أن رأى الضَّب الذي أهده الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيدة لولد الشيخ أحمد طالب الإبراهيمي وذلك بتاريخ 11 شوال 1359هـ (الموافق لنوفمبر 1940م) يقول الشيخ البشير :

(حضرة الفيلسوف ولدنا الأستاذ أحمد بن أبي زيد قَصِيَّة¹ - حفظه الله - وما زلت أعتكم في رسائل إليكم بالفيلسوف تنادرا، ومباشطة، وتظرفا، وأنا لا أجهل أنكم تنظؤون على شمائل فيلسوف أو تحملون روحه بالتعبير العصري، حتى جاءت هديتكم لأحمد¹ على يدي وهي عبارة عن ضَب، وورل، مُحَنِّطِينَ بالنُخالة لا بالموميا فعاتبكم - فيما أذكر - عتاب مُغفَل بما معناه: أيّ شبيث عن طوق هذه الأحناش .

وما كان ذلك العتاب إلا عنوانا على غفلي في ذلك الوقت - على الأقل - ثم فاء عليّ عازب عقلي، وضائع فكري، ووضعت الضَّب أمامي، وتأمّلتُ خلقتَه مرّات في الأيام، فوالذي خلق الضَّب، والدُّب،، وأنبت النّجم، والأبّ، فخلق التّوى، والحبّ لقد أذكرني ضَبّكم بما كنتُ أحفظه عمّا قيل في الضَّب وعلى لسانه، وما ضُرب من الأمثال المتعلّقة به، ما لو خلعتُ عليه أيّام الصّبا جُدّدا، ونفضتُ عليه ماء الشّباب مِدّادا، ومَدّدا، لم أكن لأذكره.)¹

وقد قسّم الشيخ البشير الإبراهيمي رسالته إلى فصول، ولم يجعل لها عناوين أو تراجم، وقد اجتهد الأستاذ سامي غرمول فوضع لها عناوين تفصيلية دقيقة. ويذكر الشيخ أنّ حيوان الضَّب كان محظوظا عند العرب دون كثير من الحيوانات الجزيريّة (نسبة إلى جزيرة العرب) فدرسوا ظاهره وباطنه، وعرفوا طباعه فأكثروا فيه القول حتى

بلغ هيامهم به ،وتمنطقهم بذكره أن أعطوه بعض الخصائص الإنسانية ،وزادوا فنحلوه فضيلة لا توجد في الإنسان ،ولا في غيره من الحيوان .ثم يردف الشيخ قائلاً :
(والحقُّ أنَّ الضَّبَّ حيوان عربي جزريّ ،ولا تقل إنّه صحراوي ،لأنَّ الصَّحراء ليست خاصة بالعرب ،فإنَّ هذه الصحراء التي هي آية من آيات الله في أرضه ،أو هي باب الفلسفة من هذا الكتاب الأُرضي لم يعمرها الله بأمة تشربت معانيها ،وتغلغلت في دقائقها ،ولاءمت روحها روحها مثل الأمة العربية ،وسل التاريخ يُنبئك فهو لم يعرف أمة خلعت عليها الصَّحراء فطرَّتها ،وأفرغت عليها إفراغا سابغا غير الأمّة العربية.

ومن ههنا جاشت نفوس العرب ،وتفتّقت قرائنهم عن روائع الفلسفة الوصفية للصَّحراء ،وأرضها ،وسمائها ،وليلها ،ونهارها ،وأغوارها ،وأنجادها ،وبراريها القاحلة ،وشجراتها ،ومعايشها ،وقيظها ،وصرَّها ،وحيوانها ،ونباتها ،وليس لأمة من الأمم ما للعرب في وصف النجوم حتى قرَّبتها تشبيهاً لهم إلى الإدراك البشري ،و اعتبر ما قالوه في سهيل ،والجوزاء ،والسَّمَاكِين الأعزل ،الرَّامح ،والثَّريَّا ،والخضيب ،والدَّبران ،والنَّسرَيْن ،الواقع ،والطَّائر ،على كثرة النجوم ،وكثرة ما قالوه فيها ،وإذا كانت النجوم لا تُحصى عدّاً ،فقلَّ ذلك قالتها العرب فيها .¹

ويؤكد الشيخ الإبراهيمي على أن العرب خالطوا الحيوانات الضارية في الشجر الكثيف المتنّف فيقول:وأما العرب فخالطوا الصَّواري في أغيالها ،واقترحوا مأسد حقان ،والثَّريّة ،وترج ،وغيرها وذلّت أرضها أقدامهم ،ومنهم من عايش الصَّواري حتّى ألفها ،وألفته ،وجمع بينهما عالم كعالم المثل عند الصّوفية ،فلطُفت في السَّبُع سورة السَّبْعِيَّة وشَرَّتها ،وامتدّت في العربيّ الميزة الحيوانية ،وتقاربت الغرائز في

الجوّ الحيوانيّ الوسط فصدق الوصفُ، وحقّق التصويرُ، ولو لم يكن العربيُّ أمّياً، وكان ممّن يدرس الأشياء على المناهج العلميّة، لأتى العالم بالمعجزات .

وليس لأمة من الأمم ما للعرب في وصف الحشرات، والزّواحف، والإمام بطبائعها، ووجوه تصرّفاتّها، وسعيها في معاشها، وتناسلها ودراسة ما بينها من امتزاج، وتنافر، وصفٌ عن عيان ودراسة في الجوّ الطبيعي، وليس لأحد ما لهم في وصف النّبات، والشّجر، وتحليل مكاسرها بالعجم، والغمز، وتحقيق طُومها، وخصائصها، وتقسيم أنواعها وتسمية مُفرداتها من شتّ، وطُبّاق، وآءٍ، وتثُوم، وثُمام، وشيحٍ، وقيصوم، ثم غربٍ، وشويط، ونبعٍ، وسراءٍ، ومرخٍ، وعفارٍ، إلى غير ذلك مما بلغوا في تصويره في أشعارهم درجة تقربُ من تصويره بالألوان.¹

ويجزم الإبراهيمي في رسالته أنّ رواة اللّغة، ونقلتها في عصر التدوين عمدوا إلى تخصيص هذا الضّرب - وهو النّبات والشّجر - خاصة بالتأليف والصناعة فيقول: (وقد اضطرّ رواة اللّغة، ونقلتها في عهد التدوين إلى أفراد هذا النوع - وهو النّبات والشّجر - خاصة بالتأليف، فلاّبي عبيدة، والأصمعي، ولأبي حاتم، والتّضر بن شمّيل، ولكرّاع التّمّل، ولأبي زيد الأنصاري، ولكثير غيرهم كُتِبَ خصّوها، وسُمّوها باسم النّبات والشّجر .

ولإمام هذا النوع أبي حنيفة الدّينوري كتاب (النّبات)، وهو البحر الذي لا ساحل له، وهو مفخرة اللغة العربيّة، بلا منازع، وهو الذي لم يزلنا الدّهر بأنفس منه، ولا أئمن، ولا أعلى، وإنّ مُصيّتنا به لتفوق مصائبنا في الأعلام الثّمينة، وإنّ خسارتنا له لخسارة يعزُّ عنها العوضُ، لولا سلوة بتلك الشّذرات التي ينقلها عنه أصحاب المعاجم مباشرة أو بواسطة. وإنّ هذه الكتب الخاصّة بالنّبات والشّجر لبرهان مستقل قائم على مقدار اتّساع هذه اللّغة الشريفة، وإحاطتها، ودليل

من جهة أخرى على فضلها على المعارف البشرية، وجواب مُسكت للذين يَهْرُفُونَ بتنقُص هذه اللّغة، ويرْمُونَهَا بضيق العَطَن، والقُصُور عن استيعاب المعارف، وتوبيخٌ مرٌّ لَزَعَنَفَةٍ من أبناء العرب العاقين الذين يلُؤُون ألسنتهم بمثل هذا الكلام، ويُشَاعِعون لجهلهم، وفُسُولة أخلاقهم، وانحراف أمزجتهم العربية أعدائها على ذمّها، والزّراية بها والتّقليل من خطرها....)¹.

بعدها يعود الشيخ إلى الحديث عن الضّبّ ويخصّص فصلا في الكلام على المثل العربي المشهور (أعقُد من ذنب الضّبّ) وما للعرب من أمثال متعلّقة بالحيوان فيقول: (فأنا أعترف أيّ ما حقّقْتُ معنى المثل العربي المشهور (أعقد من ذنب الضّبّ) إلّا بعد دراستي لضّبكم، وأنّ هذا المثل لأشهر من (قفا نبك ...)، وإنّه لمضوغ بكلّ لسان مجوج على سنّ كلّ قلم، تقرأه في كلّ صحيفة، وفي كلّ كتاب، وما أكثر العقد، والتعقيدات في زماننا التي يحسن ضربُ هذا المثل لها. ولو أنّ الذين يضربون هذا المثل تقليدا، واتباعا رأوا الضّبّ، ورأوا نبيه، وتحسّسوا تلك العقد الشّائكة في ذنبه، لكان تمثّلُهم أوقع في نفوسهم، ولكانت نفوسهم أشدّ تأثرا به، وعلى مقدار التّأثر يكون التّأثير، ولعلموا مع ذلك إصابة العرب في مواقع التمثّل، ومراميّهم في مضارب الأمثال ...)¹

وفي فصل آخر (في الكلام على رجز الضّبّ) يقول الشيخ: (ورجز الضّبّ الذي أشار أغلبه المعري، وانتقد على ابن السكيت الاحتجاج به، أصله مزعم من مزاعم العرب التي لا حقيقة لها، إذ زعموا أنّ الحيوانات كانت كلّها تتكلّم ونحلوها بعضها كلمات، وجملا، وأبياتا من الشعر، وليس وضعهم لما وضعوا من هذا من ذلك النّوع المعروف عند جميع الأمم، وهو وضعهم أشياء على ألسنة الحيوانات إيغالا في الحكمة، وتطرّقا لتربية النفوس البشرية، وسوقها لفضيلة، أو صدّها عن رذيلة، فإنّ

هذا النوع من الأدب السامي هو نمطٌ من التربية الصالحة كما في كتاب "كليلة ودمنة"، ولكن العرب كانوا يعتقدون هذا اعتقاداً، وإن لم يكن عامّاً فيهم، وفي شعر أُمّية بن أبي الصلت المتأله بيتٌ في تقرير هذا المعنى، ولم أتذكر الآن ألفاظ هذا البيت، وقد سمعت من العوام، وشاهدت من يعتقد هذه العقيدة.¹

وتكلّم الشيخ أيضاً على المثل المعروف في كتب النحو (هذا جحر ضبّ خرب) ومبحث الجرّ بالجوار، ومذهب النحاة في ذلك، ودليل الشيخ على أنّ المثل مصنوع وذكر ما ورد عن العرب من صلابة جحور الضباب فقال: ولكنّ المثل البارد الفجّ (الصّامط) الذي لا يثير في النفس اهتماماً بل يثير فيها اغتناماً هو المثل الذي تعلّمناه من كتب النحو، وهو قولهم: "هذا جحر ضبّ خرب" (يُمثّلون به للجرّ بالمجاورة، أو بالتوهّم لا أدري، وإِنّما الذي أدريه هو أنّ هذا النوع من الجرّ مسموع عن العرب، وهو من شذوذاتهم اللّغوية، وانحرافهم عن مقاييس لغتهم، وهو مقبول منهم لكنه مقصور على ما ما شُع منهم، فلا يسوغُ لنا نحن طرده من كلامنا حتى لا تُفسد اللّغة على أنفسنا بهدم القواعد الصّحيحة والجري على غير منهاج.

ولهذه الشذوذات في العربية فلسفة خاصّة لم يُشبعنا أحد بالحديث عنها حتى الآن، ولو وجدتُ متّسعا من الوقت لكتبتُ فيها ما يصحّ أن يكون نواة في الموضوع، إذ تعاهده الباحثون أصبح شجرة ذات أكل شهّي، ولفيلسوف هذا الفنّ أبي الفتح عثمان بن جني جُمْل متفرقة في هذا الموضوع لكنها تنطوي على نظرات سديدة، وتدلّ على انفساح ذرع الرّجل في هذا العلم.

وإذا كان هذا النوع من الجرّ مسموعاً موقوفاً على السّماع فلست على ثقة من أنّ مثال النّحاة مسموع من العرب، وإنّما هو مثال سوقيّ انتحلوه ثم قلّد آخريهم أوّلهم فيه على عاداتهم، وهل يصحّ لهم أن يُمثّلوا لمسألة سماعية بمثال مصنوع؟ لا...¹

أمّا بقية الفصول في الرسالة فتتمثّل في الآتي :

-الكلام على حديث الضّبّب ، وأنه عُرض على مائدة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

-رأي الشيخ في الأمثال التعليمية .

-فصل في الكلام على أن الضّبّب هو من دلّ على نفسه ، وذكر طيب كُشيتِه ، وذكر حكمة الله في خلق الألوان ، والأشكال للأطعمة للدعاية إلى أكلها، ولحفظ نوعها .

-فصل في الكلام على بيض الضّبّب المسمى (المكن)

-فصل في ذكر ما للعرب من أمثال تتعلق بالضّبّب .

-فصل في مزاعم العرب في الضّبّب. أن له نِزكان أي ذكران.

-فصل في ذكر تسمية العرب بالضّبّب ، وأشهر من تسمّى بذلك على جمرات العرب .

الخاتمة: في نهاية هذه الرحلة العلمية الممتعة ، والاستمتاع بجواهر

هذه الرسالة النفيسة للشيخ البشير الإبراهيمي يمكن أخلص إلى النتائج الآتية :

1-تعتبر رسالة الضّبّب للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي محاولة معجمية ذات قيمة علمية عظيمة ، وقد أملاها الشيخ من حفظه يوم كان معتقلا بمدينة أفلو ، وقد ضمّنها فوائد جليّة ، مسائل لغوية هامة .

2-الرسالة تذكرنا بأعمال كبار العلماء في التراث العربي أمثال أبي العباس ثعلب ، والبيزدي ، والرحاجي ، وأبي عالي القالي ، وابن الحاجب . وغيرهم ، أضف إلى ذلك أنّ الرسالة تُصنّف ضمن مدوّنات كبار المعجميين الموسومة ب(كتب الحيوان) ، و(كتب الحشرات) ومنهم الجاحظ في كتابه (الحيوان) .

- 3- في اعتقادي هذه الرسالة تندرج ضمن ما يُعرف بعلم الدلالة المعجمي وهو علم موضوعه معاني الألفاظ، وهذا الموضوع من اختصاص اللسانيات .
- 4 -إنّ رسالة الضّبّ للشيخ الإبراهيمي تعتبر ضمن الرسائل اللغوية التي هي بدورها تمثل النواة الأولى للمعجم العربي على منوال أبي عمرو بن العلاء ،و الكسائي، و قطرب ،والفراء ،والأصمعي ،وأبي زيد الأنصاري .

الهوامش و الإحالات:

- 1- ينظر :مقال (أنا) بقلم :البشير الإبراهيمي ،الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ،ص11، وما بعدها.
- 2- ينظر المرجع نفسه ص 13 وما بعدها.
- 3- ينظر المرجع نفسه ص 17 ومل بعدها .
- 3- المرجع نفسه ص32.
- 5- المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .
- 6- ينظر مقدمة سامي فرغول في (رسالة الضب) للشيخ الإبراهيمي ص5 وما بعدها ،دار المعارف الجزائرية .
- 7- ينظر:المدخل إلى مصادر اللغة العربية ،د/سعيد حسن بحيري ،مؤسسة المختار القاهرة، ص29 وما بعدها.
- 8- ينظر مصادر اللغة في المكتبة العربية ،عبد اللطيف الصوفي ،دار الهدى عين مليلة الجزائر ،ص234.
- 9- ينظر قراءة وتقديم الأستاذ سامي فرغول في مقدمة (رسالة الضب) للإبراهيمي ،ص7.
- 10- ينظر تقديم أ/ سامي فرغول في الرسالة ص7.

11- الشيخ أحمد بن أبي قصبية رحمه الله وُلد سنة 1919م بالأغواط ،هاجر طالبا للعلم إلى الزيتونة ،وعاد منها سنة 1933 كانت له علاقة خاصة مع الشيخ الإبراهيمي إذ كان يزوره في منفاه بآفلو ،وابتداء من سنة 1943 أصبح كاتباً مركزياً لجمعية العلماء بالعاصمة ،ومحرراً بجريدتها البصائر .

12- هو أحمد طالب الإبراهيمي ابن الشيخ العلامة البشير الإبراهيمي وُلد سنة 1932 بمدينة سطيف ،حاصل على الكتوراه في الطب ،ناضل في صفوف جبهة التحرير الوطني في مواقع متعددة .

13- ينظر (رسالة الضَّبّ) للشيخ البشير الإبراهيمي، ص15 ،دار المعارف الجزائرية ،سطيف ،ط2012، م1.

14- رسالة الضَّبّ للشيخ محمد البشير الإبراهيمي ص17 وما بعدها .

15- ينظر رسالة الضَّبّ للشيخ البشير الإبراهيمي ،ص21.

16- المصدر نفسه ص24 وما بعدها .

17- ينظر رسالة الضَّبّ للشيخ البشير الإبراهيمي ص30.

18- المصدر نفسه ص43.

19- المصدر نفسه ص34 وما بعدها .

المصادر و المراجع :

1- مصادر اللغة في المكتبة العربية،د/عبد اللطيف الصوفي،دار الهدى عين .
مليلة ،الجزائر.

2- رسالة الضب للشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزائري ، قرأها و قدم لها :سامي غرمول ، دار المعارف الجزائرية للنشر و التوزيع العلهمة ، سطيف، الجزائر الطبعة الأولى 1433 هـ/2012م

- 3-دراسات في الدلالة و المعجم ، د/رجب عبد الجواد ، دار الآفاق العربية القاهرة ، الطبعة الأولى 2016م.
- 4-مصادر التراث العربي في اللغة و المعاجم و الأدب و التراجم ، د/عمر دقاق ، دار الشرق بيروت.
- 5-المدخل الى مصادر اللغة العربية ، تأليف : أ.د/سعيد حسن بحيري ، الطبعة الثانية 1431هـ/2010م ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع .
- 6- علم الدلالة المعجمي السيمانطيقا المعجمية ، د/أ. كروس، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، دار البيضاء المغرب.
- 7-تاريخ المعجم العربي بين النشأة و التطور ، د/ابن حويلي الأخضر ميدني ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، بوزريعة ، الجزائر.
- 8-المعجمية العربية في ضوء مناهج البحث اللساني و النظريات التربوية الحديثة ، د/ ابن حويلي الأخضر ميدني ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، بوزريعة ، الجزائر، طبع في 2010م.